أول كتاب
في نحـــــو العربية

محاضرة الأستاذية

" ألقاها "

الدكتور حسن عون

أستاذ كرسي العلوم اللغوية بجامعة الاسكندرية

[يونيه سنة ١٩٥٧]

إذا كانت قيمة الكتب تقاس بالزمن فان الكتاب الذى هو موضوع حديثنا اليوم يعتبر الأول من نوعه ؛ وإذا كانت قيمتها تقاس بما فيها من غزارة فى المادة ، ومن سعة فى المعرفة ومن دقة فى التحليل مع استيعاب فى النظر ، ومن عمق فى التفكير مع ايضاح فى العرض فان نفس الكتاب الذى نتحدث بشأنه الآن يعتبر أيضاً الأول من نوعه ؛ وإذا كانت قيمتها تقاس بما تحدثه فى المجتمعات الأنسانية من ثورة عقلية ، أو بما يترتب على وجودها من انتقال المعارف من طور إلى طور آخر ، أو بما تثيره فى المجتمع من بحث ونقاش وجدل ، أو بما توحى به لدى العلماء ورجال الأدب من شروح ونقد وتعليقات فان نفس الكتاب الذى نقدمه بين أيديكم اليوم ونحاول ، قدر المستطاع ، أن نرسم لكم خطوطه الرئيسية يعتبر أيضا الأول من نوعه .

هذا الكتاب الذى يجمع كل ذلك ، بل وأكثر من ذلك ، والذى هو موضوع حديثنا الآن إنما هو كتاب سيبويه .

لسنا نعرف بالضبط ، تاريخ البدء فى تأليف هذا الكتاب ، كما لا نعرف كذلك تاريخ الفراغ من تأليفه ؛ فالروايات فى ذلك متناقضة متباينة ، وليس هناك من دليل مادى أو وثيقة تاريخية يمكن الاعتماد عليها اعتمادا يقينيا ؛ غير أن أشهر الروايات وأولاها بالاعتبار هى تلك التى تقول بأن الفراغ من تأليفه كان قبيل وفاة سيبويه ؛ وذلك استنادا إلى ما هو معروف من أن سيبويه قد توفى قبل أن يتمكن من قراءة كتابه على الناس ، وقبل أن يتمكن الناس من قراءته على مؤلفه ، شأن ما كان متبعاً عند العلماء فى ذلك العصر . ووفاة سيبويه على أرجح الأقوال كانت فى نحو الثمانين بعد المائة من الهجرة ، أى فى أواخر القرن الثامن الميلادى . وظل هذا الكتاب عند الخاصة من الناس يدرسونه دراسة شخصية ؛ ويحرصون عليه أشد الحرص ، ويستنسخون منه عدة نسخ تنتقل من بيت الى آخر ومن مكتبة إلى أخرى حتى جاء عصر أبى الحسن الأخفش فكان أول

من تصدى من العلماء لقراءة هذا الكتاب على الناس ؛ ومن هنا استحق أن يلقب بالوارث لعلم سيبويه ؛ وقد توفى أبو الحسن هذا فى سنة ٣١١ هجرية .

وتعددت النسخ المخطوطة من هذا الكتاب ، وأخذت تتبادلها أيدى العلماء والمهتمين بالدراسات اللغوية لا من أسرة الى أخرى فحسب بل من بلد إلى آخر ؛ فانتقلت نسخ منه إلى الشام ، وأخرى إلى مصر ، كما انتقلت نسخ منه إلى بلاد المغرب ، وأخرى إلى الأندلس . ونستطيع أن نقف على أصداء ذلك كله فيما ألفه علماء اللغة والنحو فى هذه البلاد جميعاً .

ومنذ أخذت بوادر الانحلال السياسى فى البلاد العربية تظهر فى العصور الوسطى نال هذا الكتاب ما نال غيره من آثار الحضارة العربية ؛ فضاع كثير من نسخه ، وبقى بعضها حبيساً فى دور الكتب ولدى قلة من العلماء ؛ وأصبحت جمهرة الدارسين لا ترى نسخ هذا الكتاب ، ولا تعرف من شأنه سوى ما تناقله الكتب عنه ، وترويه من شواهده وآرائه .

وفى أواخر القرن التاسع عشر ألقت النهضة الحديثة قبسا من أضوائها على هذا الكتاب فبحث عنه العلماء حتى اهتدوا إلى أماكن وجوده ، وأعطوه جانبا من العناية فنشر وطبع فى بلاد مختلفة : طبع فى باريس خلال سبع سنوات ، أى ما بين سنة ١٨٨٣ م وسنة ١٨٨٩ م[1] ؛ وطبع فى كلكته سنة ١٨٨٧ م ؛ وطبع فى مصر سنة ١٨٩٦ م ؛ ثم نقل[2] إلى الألمانية وطبع فى برلين ما بين سنة ١٨٩٤ ، سنة ١٨٩٨ م .

ولم نقف حتى الآن على كتاب آخر فى نحو العربية أسبق من كتاب سيبويه بالرغم من الروايات التى تحاول اثبات مؤلف فى النحو

---

(١) كان هذا الطبع بعناية المستشرق دير نبورج .

(٢) كان هذا النقل بواسطة الدكتور ياهين .

لأبي الأسود الدؤلي ،[1] ومؤلفين آخرين لعيسى بن عمر الثقفي ،[2] وهما الجامع والأكمال ؛ كما لم نقف أيضا حتى الآن على كتاب آخر في نحو العربية أوفى من كتاب سيبويه .

وظروف تأليف هذا الكتاب تثير في نفس الباحث كثيرا من التقدير ، ولكنه تقدير تصحبه الحيرة والعجب فقد ألف هذا الكتاب الضخم ولم يمض على أوليات التفكير في الأبحاث العلمية واللغوية عند العرب أكثر من مائة سنة ؛ وقرن من الزمن ضئيل جدا في حياة العلوم . وربما تزداد حيرتنا ويتضاعف عجبنا إذا ما قورنت ظروف تأليف كتاب سيبويه بظروف تأليف أمثاله من الكتب اللغوية الأخرى عند الشعوب المثقفه ، التي أخذت من الحضارة الأنسانية ، ومن الرقي العقلي ، بحظ وفير : بلغت اللغة اليونانية أرقى درجاتها من النمو والكمال حوالي القرن العاشر قبل الميلاد ؛ وكانت أوائل الابحاث اللغوية فيها خلال القرن الخامس قبل الميلاد ؛ إذ نشأت على أيدي السوفسطائيين أمثال بروديكوس ، وبروتاغوراس . ولكن هذه الأبحاث في نشأتها لم تكن تتجاوز أكثر من إشارات عابرة عن بعض الموضوعات العامة كالتذكير والتأنيث ، وكالافراد والجمع . وفي خلال القرن الرابع قبل الميلاد اتجه أرسطو [من سنة ٣٨٤ الى ٣٢٢ ق . م] ، بجانب عمرة الفلسفة ، إلى الأبحاث اللغوية لأيمانه بأن إصلاح الأحكام العقلية متصل اتصالا وثيقا باصلاح أداة التعبير وأن سلامة أحدهما متوقفة على سلامة الآخر ، فتعهد هذه المحاولات السوفسطائية بشيء من الرعاية ، وبذل لها جانبا غير يسير من جهده الفكري ؛ ولكن أبحاثه في هذا الميدان كانت يدورها تجيء في كثير من الأحيان عفوا وفي ثنايا آثاره الفلسفية والأدبية . واستمرت هذه المحاولات اللغوية أو النحوية تسير من عالم إلى آخر ، ومن مدرسة إلى أخرى حتى القرن الثاني بعد الميلاد ، حيث تعاون عدد كبير من علماء اليونانيين خلال هذه القرون العديدة في النهوض بتلك

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٦١

(٢) نفس المرجع السابق .

الأبحاث . ولقد رأينا بعض هؤلاء العلماء ، أثناء هذه الفترة الزمنية الطويلة ، ينفرد كل واحد منهم ببحث مسألة من المسائل النحوية أو اللغوية تعرف باسمه ، وتتميز بطابعه . ومن هذا الشتات تكونت قواعد اللغة اليونانية . فنجد مثلا — اريستوفان البيزنطى — [1] يضع فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد قاعدة القياس فى اللغة ؛ ثم نجد من بعده وفى نفس العصر أيضا — أريستارك — الذى يقضى حياته فى تهذيب قاعدة القياس اللغوى ، التى أسسها — اريستوفان — ؛ ونجد كذلك فى نفس العصر — كراتيس — الذى يتخصص فى وضع وتهذيب قاعدة الشواذ فى اللغة .

وتستمر هذه الأبحاث تنمو مع الزمن ، ويقترب بعضها من بعض حتى يجئ العالم اللغوى الكبير — ابو للوتيوس — وابنه هيروديان — من بعده [2] فتجمع الأبحاث اللغوية على أيديهما فى كتاب واحد : وذلك فى خلال القرن الثانى بعد الميلاد . ومع ذلك فبعيد جدا أن يقارن هذا الكتاب ، الذى يعتبر نتيجة مجهود متواصل لعدد كبير من العلماء فى خلال ما يزيد عن سبعمائة سنة ، بكتاب سيبويه . أما اللغة اللاتينية فهى بالنسبة لنشأة الأبحاث اللغوية فيها ، وبالنسبة لتطور هذه الأبحاث ونموها تعتبر أقل من ذلك بكثير ، ولا سبيل مطلقا إلى مقارنتها بما حدث فى اللغة اليونانية فضلا عما حدث فى اللغة العربية .

ويضاف إلى قائمة هذه الاعتبارات اعتبار آخر ليس من السهل أن نغمض العين عنه أو ألا ندخله فى حسابنا ؛ ذلك أن سيبويه ، كما يبدو ، لم يكن راضيا تمام الرضا عن صنيعه فى هذا الكتاب بالرغم مما فيه من غزارة المادة ، وشمول النظر ، وبالرغم كذلك مما ظهر له من مكانة

---

(١) تولى اريستوفان البيزنطى الاشراف على مكتبة جامعة الإسكندرية القديمة وهو فى الثانية والستين من عمره ؛ وكان ذلك فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد .

(٢) أنظر تاريخ الأدب اليونانى لمؤلفيه : الفريد كروازيه وموريس كروازيه ص ٧٧٦ وما بعدها طبعة سبتمبر سنة ١٩٠٠ ،
Voir : Histoire de la littérature grecque par Alfred et Maurice Croiset : page 776 et suivant. Septembre 1900 .

رفيعة فى نفس العلماء . وكأنه كان يلمح فيه نقصا ، ويود أن يضيف اليه ، ويهذب فيه ، ويفصل القول فى أبوابه حتى يصل به إلى الدرجة التى يرضى فيها عن نفسه ، ويتمناها لكتابه . ولنا على ذلك بعض الأدلة :

(أولا) خلو الكتاب من مقدمة تمهد له وتشرح أهدافه .

(ثانيا) خلوه من خاتمة توجز آراءه ، وتعرض النتائج التى وصل اليها .

(ثالثا) وجود بعض العناوين التى تحتاج إلى شئ من الصقل والتغيير لكى تنطبق تماما على المادة العلمية التى ذكرت تحتها .

(رابعا) اهمال السند لبعض الشواهد والآراء ، بينما يزداد الحرص بالنسبة للبعض الآخر فى حين أنه لو عكس لكان الخطب أيسر .

(خامسا) وجود ما يشبه الخلط فى ترتيب أبوابه ؛ مثال ذلك حديث سيبويه عن القسم وحروفه بين حديثه عن التصغير من ناحية ، وحديثه عن نونى التوكيد من ناحية اخرى ؛ وهذان البحثان فى الجزء الخاص بالأبحاث الصرفية ، التى لا علاقة لها مطلقا بالقسم ولا بحروفه ؛ وكان الأولى أن يوضع بحث القسم ضمن الأبحاث النحوية ، التى تستغرق الجزء الأول من هذا الكتاب .

(سادسا) وجود ما يشبه التكرار ؛ مثال ذلك ما نجده فى الباب الثالث من الجزء الأول حيث يتحدث عن المسند والمسند إليه فيذكر المبتدا والخبر وما يتصل بهما من أحكام ، ويورد مجموعة من الأمثلة والشواهد على ذلك ، ثم نمضى معه قدما فى الأبواب الأخرى حتى نصل إلى الباب الثانى والثلاثين بعد المائة من نفس الجزء فنجد بابا آخر تحت عنوان « الابتداء » ؛ وهنا يكاد يعيد سيبويه ما ذكره سلفا عن المبتدا والخبر وما يتصل بهما من أحكام ؛ وكأنه نسى ما ذكره فى الباب الثالث خاصا بالمبتدا والخبر .

وما لنا نذهب بعيدا متلمسين الأدلة من محتويات هذه الأبحاث وقد ترك سيبويه هذه الأبحاث فى شكل مسودات دون أن يعنون لها ، أو يضع لهذا الكتاب اسما يشير إليها ، أو يدل عليها ؟

ولنا أن نتساءل بعد ذلك ، ماذا كان يمكن أن يصل إليه هذا الكتاب لو أتيحت الفرصة لسيبويه فوضعه فى الصورة التى ترضى عنها نفسه ، وهو ، كما نعرف ، لا يزال يعتبر فى نظر علماء الشرق أجل سفر فى الأبحاث اللغوية جميعا ، كما يعتبر فى نظر علماء الغرب أيضا أوفى كتاب فى النحو على الاطلاق ؟

ويكاد هذا يعيد إلى ذاكرتنا ما حدث لفرجيل ، شاعر اللاتينية الكبير ، فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد[1] ؛ فقد طلب وهو على سرير الموت أن تجمع له مسودات ديوانه ، الاينياده ، ثم أبدى رغبته فى أن تحرق لأنه لم يستطع أن يهذبها ، ويصقلها ، ويضعها فى الصورة الكاملة التى كان يتمناها ؛ وحينما لم يمكّن من ذلك أمام عينيه أوصى بأحراقها بعد موته ؛ ولكن أوغسطوس رفض أن ينفذ هذه الوصية ؛ وبدل أن يعدمها أوصى هو من جانبه أن تجمع وتنشر كما هى بالرغم من وجود سبعة وخمسين بيتا من الشعر لم يكمل نظمها بعد ؛ ومع ذلك فلا يزال هذا الديوان يعتبر أجل أثر فى الأدب اللاتينى حتى اليوم[2] .

إننا حينما قلنا منذ قليل إن كتاب سيبويه يعتبر أجل سفر فى الأبحاث اللغوية لم نكن متحيزين لهذا الكتاب ، ولا متجنين على الحقيقة ، فهو فى الواقع موسوعة هائلة لكل المعارف التى تتصل باللغة كوسيلة للتفاهم وأداة للتعبير ، وسجل حافل بكل ما كان يدور فى ذلك العصر من أبحاث ودراسات ، وصورة صادقة للحياة العقلية التى امتزجت فيها عناصر متعددة متباينة من سائر الأجناس ومن سائر الثقافات .

---

(١) ولد فيرجيل فى سنة ٧٠ ق.م ؛ وفى سنة ١٩ ق.م نفذ رغبته القديمة فى زيارة الشرق ، اليونان وآسيا ، وحينما وصل الى — سيفارا ، مدينة يونانية قرب بوغاز — كورانثيا — أصيب بضربة شمس عاد اثرها الى ايطاليا ولم يكد يصل الى — براندیزی — حتى اشتدت عليه وطأة المرض فمات هناك فى نفس السنة .

(٢) Voir ; Histoire de la littérature latine par J. Humbert : page 176 — 202. Paris 1935

إننا نظلم هذا الكتاب حينما نعتبره كتابا فى النحو فقط ، كما أننا نظلم النحو نفسه حينما نفهمه بذلك المعنى الضيق الذى يتعارف عليه الناس فى عصرنا هذا ، ونصوره بتلك الصورة المشوهة الجافة التى تخيف الطلاب وتنفر الدارسين ؛ تلك الصورة التى بدأت تتمثل فى الأذهان ، وتدور فى خلد المثقفين منذ أخذت تنفصل علوم اللغة بعضها عن بعض ، ويتخصص فى كل علم فريق من العلماء يدرسون مسائله ، ويستنبطون مافيه من ضوابط وقواعد .

كتاب سيبويه إذن يمثل النحو فى شبابه الزاهر ، ويرويه لنا فى صوره الخصبة الأولى ؛ فهو يضم إلى جانب النحو كل ماله صلة باللغة ؛ ففيه أبحاث فى الأصوات وفى طبيعتها ، وفيه أبحاث فى الصرف وفى الاشتقاق ، وفيه أبحاث فى المعانى والبيان والبديع ، وفيه أبحاث فى الأدب وفى النقد الأدبى ، وفيه أبحاث فى الرواية والسند ، وفيه أبحاث فى القراءات وفى التجويد ، وفيه أبحاث فى فقه اللغة ، وفيه أبحاث فى موسيقى اللغة وفى العروض ، وفيه أبحاث فى لهجات العرب ومايترتب على اختلافها من مذاهب وآراء .

كتاب سيبويه إذن أشبه شىء بالنبع الغزير ، وكل مانشأ من حوله ومن بعده من علوم لغوية يشبه الروافد التى تستمد منه مياهها لتسير فيما رسمه لها العلماء من اتجاهات : فهو مستودع كبير للتراكيب العربية ، والاصطلاحات اللغوية ، والشواهد الأدبية ، وكنز عظيم للأمثلة النحوية والصرفية يجد فيه علماء النحو والصرف قديما وحديثا ماهم فى حاجة اليه لشرح قواعدهم ، والاستدلال على مايقررون .

واليكم الآن بعض التفصيلات التى تصور جانبا من ثروة هذا الكتاب العلمية ، والتى تلقى فى نفس الوقت ضوءا على هذه الأحكام المجملة العامة التى ذكرناها ؛ وعليكم أنتم بعد ذلك تقدير مايمتاز به هذا الكتاب ، ومايستحقه من مكانة بين سائر الكتب اللغوية الأخرى .

هناك ثمانمائة وثمانية وخمسون رأيا لأئمة النحاة السابقين أمثال الخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وأبو الخطاب الأخفش ، وأبو عمرو بن العلاء ،

وعيسى بن عمر الثقفى ، وأبو زيد الأنصارى . وهذه ، كما نرى ، ثروة علمية لاتوجد فى أى كتاب آخر ، ومادة خصبة للدارسين من طلاب الماجستير والدكتوراه .

وهناك ألف وخمسون بيتا من الشعر العربى الصحيح ، وذلك وفق إحصائية قام بها الجرمى . غير أن الاحصائية الأخيرة فى طبعة الكتاب الاوروبية تبين أن الشواهد الشعرية تبلغ الفا وواحدا وستين بيتا من الشعر العربى ، لم يشك عالم فى صحتها ، كما لم يتردد نحوى فى الاستشهاد بها ، وهذه بدورها تعتبر مادة غزيرة للدارسى الأدب العربى القديم ، ومايصوره ذلك الأدب من حياة اجتماعية جاهلية .

وهناك ثلاثمائة وأربع وسبعون آية قرآنية يصور اختيارها فى مواطنها من الكتاب ماكان يلازم سيبويه من التوفيق العجيب فى ضرب الأمثال وبراعة الاستشهاد .

وهناك بعد ذلك عدد لا يكاد يحصى من الأمثلة التى اصطنعها سيبويه لنفسه كى يشرح بها قواعده أو يقيسها على غيرها من الشواهد العربية ؛ ونستطيع أن نجد صدى ذلك كله ممثلا تمثيلا كاملا فى كتب النحو والصرف والبلاغة التى ألفت من بعده .

وهناك مسألة أخيرة ، ولكنها جديرة بالنظر ، قد أثارت كثيرا من الجدل بين العلماء والباحثين ؛ ذلك أن الكتاب على غزارة مادته ، وكثرة مافيه من شواهد وأمثلة لم يستشهد بحديث واحد من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فكيف أغفل سيبويه هذا الميدان الواسع من ميادين اللغة ؟ وماهى الأسباب التى دعته إلى أن يهمل الاستشهاد بالأحاديث فلم يكن موقفه منها كموقفه من الشعر العربى والآيات القرآنية ؟

ومما يدل على أن سيبويه كان يصر على هذا ، ويتتبع فيه منهجا واضحا وخطة مرسومة هو أنه أعاد الاستشهاد بما يقرب من خمسين آية قرآنية فى مواضع مختلفة من الكتاب ؛ ولم يكتف فى كثير من الأحيان بالاعادة

مرة واحدة أو مرتين اثنتين ، بل أعاد بعضا منها ثلاث مرات وأربع مرات ؛ ومع ذلك لم يخطر بباله أن يعرج مرة واحدة على الأحاديث ليستشهد بواحد منها .

تفسر هذه الظاهرة ، كما نتصور ، هو أن سيبويه لم يكن كبير الثقة فى رواية المحدثين ، كما كان عظيم الثقة فى رواية الشعر وفى الآيات القرآنية من حيث الدقة والعناية بالنسبة للنص ؛ إذ أن للشعر من الموسيقى اللفظية مايعين على حفظه مضبوطا ، وللقرآن كذلك من العناية الفائقة والاهتمام الزائد مالم يسمح بتسرب أدنى شك إلى ضبطه . أما الحديث فلم يتوفر له مثل ذلك ؛ يضاف إلى هذا أن الرواية بالمعنى قد صحت فيه ، واستساغها كثير من العلماء ولكى يجنب سيبويه كتابه ذلك الجدل الذى لا طائل تحته نعتقد أنه اكتفى بالاستشهاد من الشعر العربى ، ومن الآيات القرآنية . وفى ذلك دليل بين على مبلغ ماكان يلازم سيبويه من الدقة ، والتحرى ، والبعد عن مواطن الريبة العلمية .

ولو أننا أخذنا بعين الاعتبار مافى هذا الكتاب من مادة غزيرة واسعة ، ومن نظرات عميقة فاحصة ، ومن إحاطة شاملة لكل الأبحاث اللغوية التى تشمل اللفظ والمعنى بأوسع مايتصور منهما كان من السهل علينا أن ندرك مبلغ الجهد الذى بذله سيبويه فى استقصاء مادة كتابه وجمعها ، ومقدار الوقت الذى قضاه فى تصنيف هذه المادة وتهذيبها ، ولقد كان ذلك كله مدعاة لأن يشك فريق من الناس (١) فى أن هذا الكتاب من عمل سيبويه وحده ، ومن نتيجة مجهوده الخاص ؛ حتى لقد ذهب الغلو ببعض هؤلاء الناس إلى حد القول بأن مجهود سيبويه فى هذا الكتاب يعتبر أقل من مجهود أى فرد آخر من العلماء المعاصرين أو السابقين الذين تعاونوا فى تأليفه .

لم يكد يعرف كتاب سيبويه بعد وفاته حتى أخذ الناس يجدون فى البحث عنه فى كل مكان . وانكب عليه العلماء يدرسون مسائله ويتفهمون أبوابه

---

(١) أنظر « أخبار سيبويه » فى الفهرست لابن النديم ص ٧٦ ؛ وأنظر كذلك « سيبويه امام النحاة » للأستاذ على النجدى ناصف ص ١٢٨

وفصوله ، ويشرحون شواهده وأمثلته ، ويستنبطون قواعده وأحكامه ؛ ولم يمض وقت طويل حتى أصبح هذا الكتاب مشاعا بين العلماء جميعا ، ومرجعا لكل الدارسين فى البلاد الأسلامية شرقا وغربا . ذاع اسم الكتاب إذن فى جميع الأقطار التى لها صلة بالحضارة العربية ، وارتفعت بواسطته مكانة البصرة من بين سائر العواصم العلمية إذ ذاك .

وإذا كانت الكوفة أقل هذه العواصم اهتماما بخدمة كتاب سيبويه ، والتأليف حول موضوعاته ، فإن ذلك لما هو معروف من المنافسة العلمية الشديدة بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة : وآية ذلك ماحدث بين سيبويه والكسائى من مناظرة نحوية فى بغداد على يد يحيى بن خالد البرمكى فى مسألة «العقرب [1]» المعروفة عند علماء النحو واللغة على السواء . وعجيب أننا لم نجد فيما اطلعنا ، بحثا واحدا ألفه نحويو الكوفة حول كتاب سيبويه ، ومع ذلك فمما لا شك فيه أن الكوفيين قد استخدموه بعد أن حصلوا عليه ، واستنسخوا منه عدة نسخ ، وانتفعوا بما فيه من معارف أجل انتفاع .

وهذا السبب نفسه يوضح لنا كيف كان أشد النقد الذى يوجه إلى الكتاب وإلى صاحبه صادرا عن الكوفيين .

ولقد حاولنا عمل احصائية فى المراجع العربية الأصيلة لمشاهير العلماء الذين اهتموا اهتماما خاصا بكتاب سيبويه فلرسوه دراسة مستفيضة ، وفهموا مسائله فهما عميقا ، وفتنوا بما فيه من معارف ، ثم كتبوا عنه شارحين لنصوصه تارة ، ومعلقين عليها تارة أخرى ، ومستنبطين لما فيه من قواعد طورا ، وملخصين لتلك القواعد طورا آخر ، فوجدنا أن عدد أولئك العلماء يقرب من المائة فى سائر الأقطار العربية المختلفة . ولعل أهم هذه الأقطار هى بيئة الأندلس والمغرب الأقصى ؛ إذ وجد هناك ما يزيد على الأربعين عالما .

---

(١) وردت قصة هذه المناظرة فى مراجع عديده منها طبقات الزبيدى ص ٤٩ ، ٤١ ، وانباه الرواة ج ٢ . ص ٣٤٨ ، وتاريخ بغداد ج ١٢ . ص ١٩٨ ؛ والفهرست لابن النديم ص ٧٦ ، ٧٧ . والقصة معروفة متداولة مشهورة ؛ وقد جمع شتاتها ولخصها وعلق عليها صاحب كتاب « سيبويه امام النحاة » المتقدم ذكره ص ١٠٠ — ١٠٨

على أن من بين هؤلاء العلماء من لم يكتف بتأليف كتاب واحد فى نفس الموضوع ؛ بل تجاوز ذلك إلى جمع من الكتب كلها تدور حول كتاب سيبويه لتوضيح ما غمض فيه ، وشرح ما أغلق فهمه منه . ولنضرب لذلك مثلا المبرد[1] ، الذى بدأ قراءة كتاب سيبويه قراءة علمية على الجرمى ، ثم ختمه على المازنى . وبعد أن حلل أحكامه ، وألم بمسائله ، وأحاط بما فيه اتخذه موضوعا لأبحاثه وتأليفاته ، فألف خمسة كتب مختلفة هى : كتاب المدخل الى سيبويه ، كتاب الرد على سيبويه ، كتاب الزيادة المنتزعة من سيبويه ، كتاب شرح شواهد كتاب سيبويه ، وأخيرا كتاب معنى كتاب سيبويه ، ونجد كذلك محمد بن على بن اسماعيل المكنى بأبى بكر ، وهو من أهل العسكر ، يؤلف كتابين فى نفس الموضوع . أحدهما شرح كتاب سيبويه ، والثانى شرح شواهد كتاب سيبويه[2] .

وهناك أيضا أبو الحسن على بن عيسى بن على بن عبدالله النحوى ، الذى ألف بدوره ثلاثة كتب حول كتاب سيبويه ، ثم كتابا رابعا خصصه لشرح كتاب المدخل إلى سيبويه ، الذى ألفه المبرد ، والذى ذكرناه منذ قليل . وهاهى ذى كتبه الأربعة[3] : كتاب شرح سيبويه ، كتاب أغراض كتاب سيبويه ، كتاب المسائل المفردة من كتاب سيبويه ، وأخيرا كتاب شرح المدخل للمبرد .

من ذلك نرى ، من ناحية ، مبلغ اهتمام العلماء بكتاب سيبويه ، وحرصهم على ما فيه من مادة علمية ، ومن ناحية أخرى ، مدى ما أحدثه هذا الكتاب من ثورة عقلية فى مختلف البلاد الاسلامية .

والظاهرة العجيبة هنا ، والجديرة منا بالنظر والاهتمام هى أن أكثر من تسعين فى المائة من العلماء الذين درسوا كتاب سيبويه ، واهتموا

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٨٧ – ٨٨

(٢) الفهرست ص ٨٩

(٣) الفهرست ص ٩٤ – ٩٥

بالتأليف حول مشاكله وموضوعاته ، كانوا ، كما يتضح من موقفهم ، يعتقدون أن النحو قد انتهى إلى سيبويه ، وأنهم فى شبه يأس من أن يأتوا بجديد فيه بعد كتاب سيبويه ، فانصرفوا الى تفسير غريبه ، وشرح شواهده وامثلته ، والتعليق على ما فيه من معارف وأحكام . ولقد استطعنا أن نحصى فى خلال نحو قرن من الزمن بعد وفاة سيبويه ما يزيد على العشرين كتابا كلها تعالج كتاب سيبويه [1] ؛ ومعنى هذا أنه فى خلال القرن التالى مباشرة لظهور كتاب سيبويه كان يظهر فى أفق الثقافة العربية بمعدل كل خمس سنوات فقط كتاب كبير يتناول ناحية من نواحى كتاب سيبويه .

ولقد بلغ حرص هؤلاء العلماء على كتاب سيبويه ، وتمسكهم بمادته وأحكامه درجة لا يكاد يتصورها من لم يكن ملما بنواحى الثقافة العربية . وعلى الخصوص بمبلغ الجهد العنيف الذى بذله العلماء فى الأبحاث اللغوية منها ، فقد اندفع هذا البعض إلى حفظ نص الكتاب عن ظهر قلب ، كما كانوا يحفظون نصوص القرآن سواء بسواء ؛ وهذا ، كما نعلم ، صعب المنال ؛ إذ أن الكتاب يحتوى على سبعمائة وعشرين فصلا قد سجلت فى ألف صفحة من القطع الكبير .

ولم نجد حتى الآن ، فيما درسناه واطلعنا عليه من آثار عقلية أو فكرية فى الحضارات المختلفة شرقية كانت أم غربية ، قديمة كانت أم حديثة ، كتابا قد حظى بمثل ذلك من العناية والاهتمام ، والحفظ عن ظهر قلب — وهذا بطبيعة الحال فيما عدا الكتب السماوية — سوى كتابين اثنين : أحدهما الأبنياده للشاعر اللاتينى ڤيرجيل ؛ والثانى كتاب سيبويه .

وهناك ، حتى فى هذا التشابه ، ما يميز كتاب سيبويه ويرفع من شأنه ؛ إذ أن مصدر العناية بين الكتابين يختلف تمام الاختلاف ؛ فقد بدأت العناية

---

(١) كان أساسنا فى هذه الاحصائية كتب طبقات النحاة القديمة المختلفة كبغية الوعاة ، وكشف الظنون ، وانباه الرواة ، وعلى الخصوص كتاب الفهرست لابن النديم حيث كتب فصلا هاما عن النحو ومن وضع فيه ، من ص ٦٠ الى ٨٩ ثم اتبعه بفصل آخر عن العلماء البصريين من ص ٨٩ الى ٩٥

بكتاب فيرجيل متأخرة فى خلال العصور الوسطى ؛ وذلك حينما فهم بعض المسيحيين من إشارة وردت فيه التنبؤ بمولد المسيح عليه السلام . ومنذ ذلك التاريخ حظى هذا الديوان من الشعر بشىء من القداسه ، وانكب عليه رجال الأدب بوحى من أئمة الدين يحفظون نصوصه ، ويوصون الدارسين بحفظها .

أما كتاب سيبويه فقد بدأت العناية به مبكرة ، ولم يكن لهذه العناية من أسباب سوى ما فيه من مادة علمية غزيرة ، وما يحققه للدارسين من نفع عظيم .

وطريقة سيبويه فى عرض مادته طريقة أولية بسيطة تتمشى مع طبيعة العلوم فى نشأتها ، وحالة التأليف فى أولياته . ولكنها مع هذه البساطة أو السذاجة يكاد المرء ، حين يفكر فيها قليلا ، يلمح من خلالها معالم طرق التربية الحديثة فى التعليم ؛ فهو لا يعرض على الطلاب الأحكام اللغوية المجردة ولا القواعد النحوية المطلقة ، فيضيف بذلك إلى صعوبة المادة اللغوية صعوبة أخرى أشبه بصعوبة الفلسفة حين تتعرض للبحث فى التجريد والمجردات ؛ ولكنه يعرض المادة اللغوية أولا عرضا وافيا ، ثم يناقشها من نواحيها اللغوية مناقشة هادئة تشبه ما كان يصنعه فلاسفة الأغريق القدماء فى تعليمهم حينما ينهجون منهج الحوار ؛ فتراه إذن يعرض مجموعة كبيرة من الأمثلة ، والشواهد كنماذج لغوية ثم يشرح معناها ، ويفصل القول فيها محللا أصل تركيبها وكاشفا عما يرمى إليه من وراء ذكرها ، وأخيرا يصل بالقارئ حينا إلى استنباط القواعد وذكر الأحكام ، وحينا آخر يكتفى بأن يهيئ له الطريق ، ويمده بوسائل الاستنتاج ، ثم يترك له الفرصة بعد ذلك لكى يستنبط هو ما يمكن استنباطه من ضوابط وأحكام وقوانين . وربما نراه فى بعض الأحيان يلجأ إلى طريقة أخرى ، ولكنها من نفس المنهج ؛ فبدل أن يبدأ بالتفصيل فى ذكر الأمثلة والشواهد ثم ينتهى بالأحكام فى استنتاج الأحكام والقواعد ؛ نجده يبدأ بالأحكام فيذكر أقسام الباب أولا ، ثم ينتهى بالتفصيل حيث يذكر الأمثلة ويتناولها بالشرح والتعليق .

ويبدو لنا ، ونحن نقرأ بأمعان كتاب سيبويه ، ونستعرض طرقه ومناهجه فى التعليم ، أن النحو فى دراسته لكى يخرج من هذا الأطار التجويدى البغيض ، ولكى يدرس فى هذا العصر الدراسة المثمرة ، ينبغى ، وليس فى ذلك من عيب ، أن نعود به إلى الوراء ونطبق ، من حيث المبادئ العامة فقط ، نفس الطريقة التى استعملها كتاب سيبويه ؛ إذ أن الأبحاث اللغوية لا بد لها أولا من المادة اللغوية الصحيحة ، كما أن النحو لا بد له من أن يتناول تركيب الجملة بأسرها ، لا أن يقف عند النظر فى أواخر الكلمات فقط .

وتعالوا بنا الآن نستعرض سويا بعض نصوص من هذا الكتاب لكى نرى معا قليلا من النماذج التى تلقى ضوءا على منهج سيبويه ، ولكى تكون لدينا بعد ذلك صورة حية عن هذه الأفكار والمعانى التى ذكرناها بصدده منذ قليل :

يقول سيبويه فى الباب السادس من الجزء الأول : « هذا باب الاستقامة من الكلام والإحاله » — فمنه مستقيم حسن ، ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب . فأما المستقيم فقولك أتيتك أمس وسآتيك غدا ؛ وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول أتيتك غدا وسآتيك أمس ؛ وأما المستقيم الكذب فقولك حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه ؛ وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ فى غير موضعه نحو قولك قد زيداً رأيت ، وكى زيد يأتيك وأشباه هذا ؛ وأما المحال الكذب فأن تقول سوف أشرب ماء البحر أمس » .

ويلاحظ القارىء لهذه الفقرات أن الصلة تكاد تكون مفقودة بين ماجاء فى هذا الباب من كتاب سيبويه وبين ماهو متعارف عليه من الموضوعات النحوية التى تدرس فى كتب النحو الآن ؛ فقد عرفنا ولا نزال نسمع من كثير من النحاة المعاصرين أن موضوع علم النحو البحث فى بنية الكلمة وشكل أواخرها وإذن فمعانى الجمل ومفهوم التراكيب اللغوية ، والصلة بين أجزاء الجملة الواحدة وما يمكن أن يراد منها ، كل ذلك لايدخل ضمن نطاق الدراسة

النحوية وفق ماسار عليه العلماء بعد أن شققوا المعارف اللغوية وخصصوا لكل ميدان من ميادينها بحثا خاصا وعلما مستقلا . ومن هنا يظهر الفرق بين الأبحاث اللغوية فى كتاب سيبويه وبين ماتعارف عليه العلماء فى العصور المتأخرة بعد أن انفصلت هذه العلوم اللغوية بعضها عن بعض واستقل كل علم منها بموضوع خاص .

ولقد وجد علماء البلاغة فى هذا الباب نفسه مادة قيمة لدراساتهم البلاغية ولأبحاثهم فى هذا العلم . وهاهو ذا ابن سنان الخفاجى يستغل مادة هذا الباب فى كتابه سر (١) الفصاحة ، وهو من الأبحاث البلاغية الخالصة ، فيبين صلة اللفظ بالمعنى ، ثم يتناول مفهوم المعانى من حيث الصدق والكذب والاستحالة والأمكان .

ويقول سيبويه أيضا فى الباب الثانى والأربعين من الجزء الأول :

« هذا باب استعمال الفعل فى اللفظ لا فى المعنى لاتساعهم فى الكلام وللإيجاز والاختصار » فمن ذلك أن تقول على قول السائل كم صيدَ عليه ، وكم غيرُ ظرف لما ذكرت لك فى الاتساع والايجاز فتقول صيدَ عليه يومان وإنما المعنى صيدَ عليه الوحشُ فى يومين ولكنه اتسع واختصر ...

[ثم يمضى هنا سيبويه فى ضرب الأمثلة العديدة وشرحها على هذا النمط ليشرح وجهة نظره فى أمثال هذا التركيب حتى يقول] ، ومن ذلك أن يقول كم ضُرِبَ به فتقول ضرب به ضربتان وضرب به ضرب كثير ، ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى(واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى اقبلنا فيها)، إنما يريد أهل القرية فاختصر وعمل الفعلُ فى القرية كما كان عاملا فى الأهل لو كان هاهنا ، ومثله(بل مكر الليل والنهار)وإنما المعنى بل مكركم فى الليل والنهار وقال تعالى(ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) إنما هو ولكن البر برُّ من آمن بالله ، ومثله فى الاتساع قوله عز وجل(ومثل

(١) سر الفصاحة ، ص ٢٢٧

الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء فلم يُشبّهوا بما ينعق وانما شُبّهوا بالمنعوق به وإنما المعنى مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذى لايسمع ، ولكنه جاء على سعة الكلام والايجاز لعلم المخاطب بالمعنى ، ومثل ذلك من كلامهم بنو فلان يطؤهم الطريقُ وإنما يطؤهم أهلُ الطريق .... الخ »

وليس من الصعب أن يلاحظ القارىء هنا أيضا الاتجاه الخاص فى هذا الباب ، فالمشكلة التى تتمثل أمام سيبويه هنا ليست مشكلة بنية الكلمات ، ولا مشكلة مايعترى أواخرها من الحركات المختلفة ، وإنما هى مشكلة حذف بعض الكلمات من التراكيب اللغوية اختصارا فى الكلام واكتفاء بدلالة البعض الآخر عليها ؛ وهذا ضرب من ضروب الأساليب البلاغية ، وميدان من تلك الميادين التى تتجلى فيها عبقرية اللغة ، ويتضح من خلالها لون من الوان فلسفتها ومن أجل ذلك قد أصبح هذا البحث من كتاب سيبويه فيما بعد مصدرا هاما من مصادر عبد القاهر الجرجانى فاستغله استغلالا واسعا فى كتابه أسرار (١) البلاغة .

ولم يكتف الجرجانى بمفهوم هذا البحث ليكتب عن المجاز فى اللغة ويشرح طرق استعماله المختلفة ، بل إنه أخذ كثيرا من نفس الشواهد التى ذكرها سيبويه ، وحللها بنصها ليبين بواسطتها أنواع المجاز ، وليصل من وراء ذلك إلى سر من أسرار البلاغة فى القول .

وننتقل الآن إلى باب آخر من أبواب كتاب سيبويه ، وهو الباب الرابع والسبعون من الجزء الأول أيضا حيث يقول :

« هذا باب ذكر معنى لبيك وسعديك وما اشتقا منه » — وإنما ذُكر

(١) انظر أسرار البلاغة « فصل فى الحذف والزيادة وهل هما من المجاز أم لا » ص ٣٦٢ — ٣٦٨ ؛ طبعة ثالثة بمطبعة الحلبى مع تعليق الأستاذ محمد رشيد رضا ؛ ثم اقرأ أيضا الفصول الأربعة السابقة لهذا الفصل فى نفس الطبعة من ص ٣١٦ الى ٣٦٢

ليُبَيِّن لك وجه نصبه كما ذكر معنى سبحانَ . حدثنا أبو الخطاب (١) أنه يقال للرجل المداوم على الشيء لايفارقه ، ولايقلع عنه قد ألب فلان على كذا وكذا ويقال قد أسعدَ فلان فلانا على أمره وساعده والإلباب والمساعدة دنوٌ ومتابعه إذا ألبَّ على الشيء فهو لايفارقه وإذا أسعده فقد تابعه فكأنه إذا قال الرجل للرجل يافلان فقال لبَّيكَ وسعديك فقد قال قربا منك ومتابعة لك فهذا تمثيل وإن كان لايستعمل فى الكلام كما كان براءةَ الله تمثيلا لسبحان الله ولم يُستعمَل ، وكذلك إذا قال لبيك وسعديك يعنى بذلك الله عز وجل كأنه يقول أى رب لا أنأى عنك فى شيء تأمرنى به فاذا فعل ذلك فقد تقرب إلى الله بهواه وأما قوله وسعديك فكأنه يقول أنا متابع أمرك وأولياءك غيرُ مخالف فاذا فعل ذلك فقد تابع وأطاع وطاوع ... » وهكذا يمضى سيبويه فى عرض مجموعة من الأمثلة شارحا لها ، ومعللا لصيغها ، ومبينا وجهة نظره فيها . والقدر من النحو ، الذى يبدو فى هذا الباب وفى نظر النحاة المتأخرين ، ضئيل جدا إذا ماقيس بشرح التراكيب اللغوية والتحليل الدقيق لها . على أننا حين نمعن النظر فيما تناوله سيبويه من البحث اللغوى خلال هذا الباب وحده نجد أن المؤلف ينفذ إلى أعماق اللغة ويبين فلسفة التراكيب ، ومن أجل ذلك رأينا الثعالبى يقتبس من هذا الباب ومن أمثاله فى الكتاب بعض الموضوعات ليؤلف منها مادة كتابيه : فقه اللغة ، وسر العربية ؛ كما رأينا اللغوى الفيلسوف ابن جنى ، يعتمد على أمثال هذا البحث عند سيبويه ليخرج للناس أبحاثه اللغوية الفلسفية ، وخصوصا ماجاء منها فى كتابه « سر صناعة الأعراب » .

وهناك غير هذا وذاك أبواب أخرى فى الكتاب تبين بوضوح إلى أى حد قد اعتمد عليها علماء الأصول ، والقراءات ، والعروض لكى يتخذوا منها بدورهم مادة لأبحاثهم الخاصة فى هذه العلوم .

على أن هذا الكتاب ، كغيره من الكتب الأخرى ، لايمكن أن يسلم من النقد ، كما لايمكن أن يخلو من الهفوات ؛ بل لعله من أكثر الكتب تعرضا

(١) كلما ذكر سيبويه فى كتابه هذه الكنية — حدثنا ابو الخطاب — يقصد الأخفش الأكبر وهو أحد الأخافشة الثلاثة المشهورين فهناك الأوسط والأصغر انظر بغية الوعاة ص٤٣٦

للنقد ؛ وهذا فى نظرنا يعتبر دليلا غير مباشر على مكانة هذا الكتاب ومبلغ ماحظى به من عناية العلماء واهتمامهم . ومن الانصاف أن نقرر أن مافى هذا الكتاب من هفوات ينبغى ألا تنظر إليها مجردة لنصدر أحكامنا عليها ؛ بل يجمل بنا أن نضعها بجانب ماهنالك من حسنات ليكون الحكم صادقا نزيها .

نقدوه من ناحية الشكل كما نقدوه من ناحية الموضوع ؛ فقالوا إن الكتاب ليس من عمل سيبويه وحده وأن هناك ما يزيد على الأربعين عالما قد اشتركوا فى وضعه ، بل قد ذهب بعضهم إلى حد المغالاة فقال إن مجهود سيبويه فى هذا الكتاب يعتبر أقل من مجهود أى شخص آخر ؛ وقالوا كذلك إن الكتاب يحتوى على كثير من الخلط وسوء الترتيب ، والذى يعنينا من هذين الشقين من النقد إنما هو الشق الثانى ؛ ويبدو أن الدافع اليه هو أن النقاد حينما حرروا أراءهم فى هذا قد نسوا أو تناسوا أن هذا الكتاب يعتبر أول موسوعة عربية تجمع المعارف اللغوية فى شتى نواحيها محاولة من حين إلى آخر أن تشرح ما غمض ، وتبين ما استغلق ، وتعلل ما دق ، وتحلل ما تعقد ؛ وجل ذلك فى رأينا من عمل شخص واحد ، هو سيبويه ؛ وأما ما يمكن أن ينسب إلى الآخرين من العلماء فى هذا العمل الضخم فهو ثانوى ضئيل لا يعدو أن يكون إضافات بسيطة قصد منها نسبة بعض الشواهد الشعرية إلى أصحابها ؛ على أن سيبويه نفسه قد تكفل بذكر بعضها [1] ، كما تولى بنفسه أيضا إضافة الآراء النحوية واللغوية إلى شيوخه من العلماء السابقين فى وضوح وبأمانة علمية تشبه الأمانة الدقيقة عند رواة الحديث .

ثم نقدوه من ناحية صعوبة التراكيب ، وغرابة المصطلحات ، وتعقيد المعانى ، والمبالغة أحيانا فى الاسترسال ؛ ولكن فات هؤلاء النقاد أن اللغة

---

(١) يأبى الاستاذ المستشرق — يوهان فك — الا أن يقرر : « فقد ثبت لدينا بصورة أكيدة أن سيبويه ساق جميع شواهده دون تسمية الشعراء » ص ٥٢ من كتابه — العربية — ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ؛ على أن هذا التأكيد من جانب — يوهان فك — ليس من السهل أن نسلم له به اذ أننا لم نجد فى المراجع العربية كلها مايثبت ذلك صراحة ؛ وكل ماهنالك حدس واستنتاج قد يوصل الى الحقيقة وقد يجانبها .

فى تطور مستمر ، وأن لغة عصر تختلف ، الى حد ما ، عن لغة عصر آخر ، فهناك كلمات تحيا وأخرى تموت . كما أن هناك اصطلاحات يقدر لها البقاء فتنتشر ، وأخرى لا تكاد تتجاوز العصر الذى نشأت فيه . وكان ينبغى على هؤلاء النقاد أن يذكروا الفرق الزمنى بيننا وبين صاحب الكتاب ، فهناك الف ومائتا سنة [مات سيبويه على أرجح الآراء فى سنة ١٨٠ هـ] وليس ذلك بالشىء القليل .

وبعد ، فهذا هو كتاب سيبويه ، وذلك هو الدور الذى قام به فى شتى نواحى الثقافة العربية المختلفة ، وتلك هى المكانة التى وصل إليها فى تقدير العلماء بالنسبة لمادته ومدى ما يحققه للدارسين من نفع فى الأبحاث اللغوية .

وإذا كان هذا هو شأن كتاب سيبويه فخليق بنا الآن أن نتجه اليه ، وأن نعمل جاهدين على إحيائه ، فندرسه من جديد ، لا كما درسه الأوائل ، بل وفق ما تتبعه مناهج البحث العلمى الحديث فى الدراسات اللغوية مستخدمين فى ذلك معارفنا باللغات الأجنبية وما دار حولها من دراسات وأبحاث ؛ فهو أجل مصدر نستطيع أن نعرف بواسطته طائفة عظيمة من لهجات العرب المختلفة ، التى أهملها علماء اللغة ، مكتفين بلهجة قريش ليقيموا عليها دراساتهم ؛ كما أنه يعتبر أيضا أجل مصدر نستطيع أن نعرف بواسطته نحو الخليل بن أحمد ، ونحو يونس بن حبيب ، ونحو أمثالهما من العلماء السابقين الذين لم يتركوا مؤلفا يتحدث عنهم ، ويفصح عن وجهة نظرهم ، ويبين أسسهم التى أقاموا عليها آراءهم النحوية .

وهناك غير هذا وذاك موضوعات متعددة أخرى يمكن بحثها ودراستها فى محتويات هذا الكتاب . ونحن إذ نصنع ذلك نحقق كسبا لمعارفنا ، وإحياء لتراثنا ، وتجاوبا صادقا مع هذه النهضة التى نحياها ، والتى بدأنا ننعم بثمارها ؛ تلك النهضة التى شملت الكثير من نواحى الحياة الاجتماعية وأخذت أصداؤها تتردد فى جميع أنحاء الدنيا .

إننا إذ نصنع ذلك نستطيع أيضا أن نقضى على تلك الاسطورة القائلة بأن الأبحاث اللغوية التى سبقت عصر سيبويه قد ضاعت وليس هناك من سبيل الى معرفتها ، كما نستطيع أيضا أن نحيى ذكرى أسلافنا ونكرمهم ، وفى تكريمهم مجد لنا وعزة لتراثنا .